من غزوات الرسول

فتح مكة

تأليف

حازم عفيفي

فتـح مكـة

(20 رمضان 8هـ)

ظل الحنين هو الشعور المسيطر على رسول الله ﷺ والمسلمين تجاه مكة بلد الله الحرام، وبلد البيت الحرام، التي أُخرج منها الرسول ﷺ وأصحابه ﭬ مهاجرين إلى يثرب (المدينة المنورة)، فوجد الرسول ﷺ فيها بيئة صالحة لانتشار الإسلام، ووجد من أهلها أنصارا نصروا دين الله وأيَّدوا رسولَه ﷺ، وآخي الرسول ﷺ بينهم وبين المهاجرين.

وبدأ الإسلام يغلب ويسودَ وتعلو كلمتُه، بعد كلِّ انتصارٍ على مشركي قريش في الغزوات قادها رسول الله ﷺ بشخصه الكريم أو السرايا التي كان يرسل على قيادتها واحداَ من شجعان الصحابة ﭬ، ثم عندما عجز العرب مجتمعين عن غزو المدينة يوم الخندق،

فقد تجمع على المسلمين عشرة آلاف من قريش وما حولها من قبائل العرب، فنصر الله المسلمين بقدرته التي لا تُغلب وقف في قلوبهم الرعب وأرسل عليهم ريحا شديدة قلعت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم.

ومع انتشار دين الله وتزايد أعداد المسلمين يوما بعد يوم أصبح من حقهم أن يؤدُّوا شعائر دينهم وعباداتهم من طواف وعمرة في المسجد الحرام الذي صدُّوا عنه ومنعوا منذ خروجهم من مكة، وتمنوا أن يعودوا إليه، وحنوا لرؤية الكعبة المشرفة والطواف بها.

ورأى رسول الله ﷺ رؤيا، ورؤية الأنبياء وحي من الله وأمر، وكانت هذه الرؤية التي رآها رسول الله ﷺ أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، واستلم رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة، وطاف حولها هو وأصحابه ، واعتمروا، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه بهذه الرؤيا، ففرحوا فرحة كبيرة، وظنوا أنهم سيدخلون مكة للعمرة في هذا العام، وكان هذا العام هو العام السادس للهجرة.

وفي يوم الاثنين الأول من شهر ذي القعدة في عام 6هـ خرج رسول الله ﷺ في ألف وأربعمائة من أصحابه رضي الله عنهم ليس معهم أسلحة إلا السيوف في أغمادها قاصدين مكة للعمرة، بعد أن استخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه.

ولما اقترب رسول الله ﷺ والمسلمون من مكة، أحرم رسول الله ﷺ وأحرم المسلمون معه بالعمرة، وساقوا الهدي[1] من الإبل أمامهم، لكن قريش منعوهم وصدوهم عن دخول مكة.

وأرسل رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قريش يخبرهم أنَّهم لم يقدموا عليهم لحرب، وإنما جاءوا فقط لأداء العمرة والطواف.

وذهب عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مكة فدخل على أبي سفيان بن حرب وكبارِ القوم، فبلّغهم الرسالة التي أرسله بها رسول الله ﷺ، فلم يجيبوا طلبه وأكثروا التشاور بينهم، وقالوا لعثمان رضي الله عنه:

[1] ـ الهدي: ما يهدى إلى الحرم لذبحه من الأنعام: الإبل، والبقر، والغنم من شعائر العمرة والحج.

- لو شئت أن تطوف بالبيت فافعل!

فرفض عثمان ﷺ عرضَ قريش بالطواف وحده، وقال ﷺ:

- ما كنتُ لأطوف بالبيت حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

وتأخَّر عثمان بن عفان ﷺ في مكة، وأبطأ على رسول الله ﷺ، ولما طالت غيبته بمكة شاع خبر أنه قُتل، فأخذ رسول الله ﷺ البيعةَ على المسلمين لقتال قريش بعد أن غدروا برسولِ رسول الله ﷺ، وكانوا ألفَ وأربعمائة صحابي ﷺ، وقد عَرفت هذه البيعة ببيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة الحديبية.

فلما علمت قريش بأمر هذه البيعة، وأنَّ رسول الله ﷺ والمسلمين قد تعاهدوا على قتالهم، أطلقوا عثمان بن عفان ﷺ الذي لم يكن في الحقيقة محتجزاً، ولم يتعرَّضوا له بسوءٍ أو أذى، ولكنهم كانوا يحاولون أن تفاوضوا معه.

وأرسلت قريش سهيل بن عمرو مندوبا عنهم لعقد صلح مع المسلمين، عرف باسم صلح الحديبية، كتبه لرسول الله ﷺ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانت بنود هذا الصلح كالآتي:

1- يرجع رسول الله ﷺ والمسلمون عن مكة في هذا العام، على أن يدخلوها للعمرة في العام التالي بغير سلاح، إلا بسيوفهم في أغمادها، ولا يقيموا بها إلا ثلاثة أيام فقط.

2- توقيع اتفاق هدنة بين المسلمين وقريش، ولا تقوم بينهما حرب أو قتال لمدة عشر سنين.

3- من أحب من قبائل العرب أن يدخل في عهد المسلمين أو عهد قريش دخل كما يشاء، وتعتبر هذه القبيلة جزءا من الفريق الذي انضمت إليه، وأي اعتداء عليها يعتبر اعتداء على هذا الفريق، ونقضًا لاتفاق الهدنة بين الفريقين.

4- من جاء محمدا ﷺ من قريش من غير إذن وليه لا يقبله ويردَّه إليهم، ومن جاء إلى قريش من المسلمين قبلوه ولا يردُّوه إليهم.

وكان هذا الشرط الأخير في مصلحة المسلمين؛ لأن المسلم الحقيقي لا يخرج من الإسلام أبداً، وإن خرج يكون منافقًا أو كافرا لا حاجة للإسلام فيه، ولا خير منه، والمنافقون بلا شك أخطر من الكافرين، ولم يمنع هذا الشرط دخول الكثير من أهل مكة وقريش في الإسلام، حيث قاموا بأخفاء إسلامهم عن قومهم.

وبينما كان كتاب الصلح يكتب لم ينتهِ عليٌّ بن أبي طالب ﷺ من كتابته، جاء أبو جندل ﷺ وهو ابن سهيل بن عمر الذي كان يكتب الصلح لقريش، وكان أبو جندل ﷺ مقيداً يـ عذّب في مكة لأنه أسلم، فرمى بنفسه بين المسلمين يريد أن ينجو من العذاب ويعيش بين المسلمين، فرفض أبوه سهيل بن عمرو أن يتركه، وحاول رسول الله ﷺ أن يأخذه، وأصر سهيل بن عمرو على تنفيذ شروط هذا العقد على ابنه!

وضرب سهيل ابنه أبا جندل ﷺ ضربا شديداً، وجرَّه من قيوده ليرده إلى المشركين، والمسلمون تتمزق قلوبهم حزنًا عليه، لا يستطيعون عمل شيءٍ، وأخذ أبو جندل ﷺ يتوسَّل بالمسلمين، ويصرخ:

- يا معشر المسلمين، لا تردُّوني إلى المشركين فيفتنوني في ديني!

فقال رسول الله ﷺ:

- يا أبا جندل، اصبر! فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، فإننا عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم العهد، فلا نغدر أبدًا.

وواساه المسلمون وطلبوا منه أن يصبر كما أخبره رسول الله ﷺ، وسيأتي الله بفرجه عن قريب.

وقد شعر بعضُ أصحاب الرسول ﷺ أن هذه الشروط تظلم المسلمين، ولا تفيد إلا المشركين فأصابهم الحزنُ والهمُّ، حتى أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ قال لأبي بكر الصديق ﷺ سرًّا:

- يا أبا بكر، ألسنا بالمسلمين، وهم الكافرين؟ فلماذا نرضى أن نعطي الدَّنيَّة في ديننا؟! لماذا نرضى أن نكون نحن الأضعف، وهم الأقوى؟!

قال أبو يكر ﷺ:

- يا عمر، الزم غرس رسول الله ﷺ (أي: اتبعه والزم طريقه)، فإني أشهد أنّه رسول الله!

قال عمر ﷺ:

- وأنا أشهد أنّه رسول الله.

وأتى عمر ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فقال له:

- يا رسول الله، لماذا نرضى أن نعطيهم الدَّنيَّة في ديننا، وأنت رسول الله، ونحن المسلمين وهم الكافرين؟!

فقال رسول الله ﷺ:

- يا عمر، أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني!

فسكت عمر ﷺ، وعلم أن هذا الأمر يحمل حكمة كبيرة يعلمها الله تعالى ولا يعلمها هو ولا المسلمون الآن.

والحقيقة أنّه على الرغم مما يظهر في هذا الصلح من ظلم واضح للمسلمين، إلا أنّه كان نصرا كبيرا للمسلمين، فقد اعترفت قريش بقوة المسلمين، وأصبحت تحسب لهم ألف حساب، كما ازداد عدد المسلمين، ونقص عدد المشركين، حتى كانوا في العام التالي عندما جاءوا مع رسول الله ﷺ في عمرة القضاء ألفين غير النساء والصبيان، فكان هذا الصلح فتحا للمسلمين، وتمهيدا لفتح مكة في عام 8هـ بعدد كبير من المسلمين بلغ عشرة آلاف.

وأصبح عقد صلح الحديبية له شهرته في جزيرة العرب كلها، وتسامعت به قبائل العرب، حتى أن قبيلة خزاعة دخلت في عهد رسول الله ﷺ طلبا للأمان، في حين دخلت قبيلة بكر في عهد قريش، وكانت بين القبيلتين عداوة، وثأر، وحروب في الجاهلية.

ولم تحترم قبيلة بكر العهد وغدرت بخزاعة، و أغارت عليهم ليلاً، وقتلت آمنيهم، وأعانتهم قريش بالسلاح، فلما لجأ بنو خزاعة إلى البيت الحرام طلبا للأمان هاجمتهم قريش وبنو بكر، وقاتلوهم في بيت الله الحرام.

وأرسلت خزاعة إلى الرسول ﷺ في المدينة يستنجدون به من عدوان قبيلة بكر وقريش، فوعدهم رسول الله ﷺ أن ينصرهم ويأخذ بثأرهم ممن ظلمهم، وقال لهم رسول الله ﷺ يطمئنهم:

- لا ينصرني الله إن لم أنصرهم!

ثم قال لهم رسول الله ﷺ:

- إن أبا سفيان سيأتي ليشدّ على العقد، ويزيد في مدة الصلح، وسينصرف بغير حاجة.

وهكذا نقضت قريش الصلح مع رسول الله ﷺ بعد أن غدرت هي وحليفتها بكر بعهدها مع المسلمين.

وندمت قريش على ما فعلت، وأحست بخطورة موقفها بعد ما غدرت وخانت العهد مع المسلمين، الذين يزيد عددهم بانتشار دين الإسلام وتزيد قوتهم بصورة كبيرة، فأرسلت قريش أبا سفيان بن حرب إلى مدينة رسول الله ﷺ في محاولة منها لتجديد الصلح مع المسلمين.

وجاء أبو سفيان إلى مدينة رسول الله ﷺ، فكان أول بيت يدخله هو بيت ابنته أم حبيبة رضي الله عنها زوجة رسول الله ﷺ، لتشفع له عند رسول الله ﷺ، ولم يكن رسول الله ﷺ في بيتها، فلما أراد أبو سفيان أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته أم حبيبة رضي الله عنها، ولم تسمح له بالجلوس عليه، وقالت رضي الله عنها:

- إنّه فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشركٌ نجس، لا يحل لك أن تجلس عليه.

فخرج أبو سفيان من عندها حزينًا مغموما.

وذهب أبو سفيان من عندها إلى رسول الله ﷺ في المسجد فكلّمه، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ بكلمة.

ثم ذهب أبو سفيان إلى أبي بكر ﵁ ليشفع له عند رسول الله ﷺ فرفض أن يشفع له.

ثم ذهب أبو سفيان إلى عمر بن الخطاب ﵁ فكلمه في ذلك، فرفض عمر ﵁ وقال له متعجبا ومعنّفًا:

- أنا أفعل هذا؟! والله لو لم أجد إلا التراب لقاتلتكم به!

وذهب أبو سفيان إلى علي بن أبي طالب ﵁ فكلّمه، فلم يجبه بشيء، وقال عليٌّ ﵁ له:

- والله ما أستطيع أن أكلّم رسول الله ﷺ في أمرٍ قد عزم عليه.

وعاد أبو سفيان بخيبته إلى قريش لا يدري ماذا سيفعل.

ولم تفعل قريش شيئًا جديدًا غير ما فعلت.

وعزم رسول الله ﷺ على السير إلى مكة فاتحا، لكنه كان يريد أن يفاجئ أهلها بدخوله والمسلمين، مخافة أن يقع قتال في بيت الله الحرام، لذا دعا الله تعالى أن يخفي عن قريش أخبار المسلمين، ويستر عنهم خروجه، وتجهزهم لفتح مكة، واستجاب الله تعالى لرسوله ﷺ، ولم تعلم قريش شيئًا من أمر تجهُّز المسلمين لفتح مكة.

وزيادة في الإخفاء على أهل مكة أرسل رسول الله ﷺ سرية من ثمانية أفراد في أول رمضان من عام 8هـ إلى موضع آخر بعيدًا عن مكة، حتى تظن قريش أن رسول الله ﷺ لا يريد غزوها، وأنَّ ما يقال عن استعدادات المسلمين الحربية إنما لغزو غيرهم، وكان رسول الله ﷺ قد أمرهم أن يغيروا طريقهم ليلحقوا بالمسلمين بعد ذلك في طريقهم لفتح مكة.

وخرج رسول الله ﷺ من مكة في عشرة آلاف من المسلمين في العاشر من شهر رمضان في عام 8هـ، بعد أن استخلف على المدينة أبا رهم الغفاري ﷺ.

وأفطر رسول الله ﷺ بعد صلاة العصر على راحلته علنًا ليراه الناس، وقال ﷺ:

- تقووا لعدوِّكم.

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يفطروا ليتقوُّوا على الحرب، كما أنَّ رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ كانوا على سفر، وأراد الرسول ﷺ أن يعلّمهم أنَّ السفر يباح فيه الإفطار.

وأفطر بعض أصحاب الرسول ﷺ وأكمل بعضهم صيامه، فلم يعب رسول الله ﷺ على من صام، ولم يعب على من أفطر.

وفي الطريق جاء العباس بن عبد المطلب ﷺ عم رسول الله ﷺ بأهله وعياله مهاجرا، وكان يكتم إسلامه منذ سنوات، فأحسن رسول الله ﷺ استقباله ورحب به.

ثم جاء إلى رسول الله ﷺ ابنَ عمه أبو سفيان بن الحارث، وكان شديد الإيذاء لرسول الله ﷺ والمسلمين، فأسلم بين يدي رسول الله ﷺ، ففرح رسول الله ﷺ بإسلامه فرحاً شديداً.

وواصل رسول الله ﷺ وأصحابه المسير حتى وصلوا إلى مرِّ الظهران عشاء، وهو مكان بالقرب من مكة، فأمر رسول الله ﷺ الجيشَ بإشعال النار، فأوقد كلٌّ واحدٍ منهم ناراً، فصارت هناك عشرة آلاف نار، رأتها قريش من بعيد فوقع الخوف في قلوبهم.

وأراد العباس بن عبد المطلب ﷺ أن يصنع معروفاً لقريش، فركب بغلة رسول الله ﷺ، وسبق رسول الله ﷺ والمسلمين إلى مكة لعله يجد أحداً يخبر قريشاً كي يخرجوا فيطلبوا الأمان للأنفسهم من رسول الله ﷺ، قبل أن يدخلها فاتحاً.

وفي أثناء ذلك التقى العباس ﷺ بأبي سفيان بن حرب مضطربا مذعورا، لا يعرف ماذا يفعل، فأركبه خلفه على بغلة رسول الله ﷺ، وتوجَّه به إلى رسول الله ﷺ في المدينة ليطلب له أمانًا منه.

ودخل العباس بن عبد المطلب ﷺ بأبي سفيان على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ:

- يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله!

قال أبو سفيان معتذرا:

- بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك!

ثم كرَّر رسول الله ﷺ كلامه، وكرر أبو سفيان قوله، ولم يسلم أبو سفيان، فقال العباس ﷺ له:

- يا أبا سفيان، أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله!

فأسلم أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ.

وقال العباس ﷺ لرسول الله ﷺ:

- يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له يا رسول الله شيئًا يفتخر به بين قومه!

فقال رسول الله ﷺ:

- نعم، من دخل دار أبو سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن.

وأمر رسول الله ﷺ أبا سفيان أنّ يخبر بها أهل مكة.

وفي صباح يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر رمضان عام 8هـ، غادر رسول الله ﷺ بجيش المسلمين مرَّ الظهران متوجها إلى مكة.

وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس ؓ أن يلازم أبا سفيان في مكان يمرُّ بجيش المسلمين فيراه، فوقف العبـاس وأبو سفيان في وادٍ يمرُّ به جيش المسلمين، وكان أبو سفيان كلما مرَّت به كتيبة من الجيش تحمل رايةَ قبيلتها سأل العباس ؓ، فيجيبه ويخبره باسمها، حتى مرَّت كلها، ما تمر قبيلةُ دخلت الإسلام حتى يخبره العباس ؓ باسمها.

ثم مرَّ به رسول الله ﷺ في كتيبة خضراء فيها المهاجرون والأنصار، وعليهم الدروع، فرهبهم أبو سفيان وملأه الخوف والرعب، وتعجب من قوة جيش المسلمين وشدتهم!

وكانت رايةُ الأنصار قد أعطاها رسول الله ﷺ لسعد بن عبادة ؓ، فلما رأى سعد بن عبادة ؓ زعيم قريش أبا سفيان ولم يعلم بإسلامه قال ؓ:

- اليوم يوم الملحمة، اليوم أذل الله قريشًا.

فشكا أبو سفيان لرسول الله ﷺ ما قاله سعد بن عبادة ؓ، فغضب رسول الله ﷺ، وقال:

- بل اليوم يوم تعظَّم فيه الكعبةُ ، اليوم يوم أعزَّ الله فيه قريشًا.

ثم قام رسول الله ﷺ بنزع الراية من سعد بن عبادة ﷺ وأعطاها لابنه قيس ﷺ.

وبعد أن مرَّ موكب رسول الله ﷺ بأبي سفيان، طلب العباس ﷺ منه أن يسرع إلى مكة قبل أن يدخل المسلمون إليها، فأسرع أبو سفيان إلى مكة، فدخل البيت الحرام منذرا بجيش المسلمين أنَّه في الطريق إلى مكة، وأخبرهم بقوة جيش المسلمين واستعداداتهم للحرب، وأنَّه ليس في استطاعة قريشٍ مواجهة ها الجيش الكبير، وصرخ بأعلى صوته فيهم:

- من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

وذكر لهم أمان رسول الله ﷺ لهم:

- من دخل بيته فهو آمن.

ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن.

فتفرق الناس إلى بيوتهم، وإلى المسجد.

وقسَّم رسول الله ﷺ الجيش الإسلامي إلى كتائب، جعل خالد بن الوليد ﷺ على كتيبة وأمره أن يدخل مكة من أسفلها، وجعل الزبير بن العوام ﷺ على كتيبة وأمره أن يدخل مكة من أعلاها، وأمرهما ألا يقاتلا أحداً إلا إذا قاتلتهم قريش أو اعتدت عليهم، وأمر أبا عبيدة ﷺ أن يتقدمه.

وكان عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وبعض فرسان مكة قد هاجموا كتيبة خالد بن الوليد ﷺ، فسحقهم خالد بن الوليد ﷺ، ففروا منهزمين خارج مكة.

وأقبل خالد بن الوليد ﷺ على رسول الله ﷺ حتى جاءه وهو على جبل الصفا.

ودخل رسول الله ﷺ مكة على ناقته، وقد حنى رأسه تواضعا لله حتى مست لحيته الشريفة ظهر ناقته،

فدخل المسجد الحرام وحوله أصحابه المهاجرون والأنصار ﷺ، فاستلم الحجر الأسود بيده، ثم طاف بالكعبة، وفي يده قوس طعن بها الأصنام، وكان عددها 360 صنما، تنتشر في كل مكان بالكعبة وحولها، وهو يردد قول الله تعالى:

- ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ[2] إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا[3] ﴿٨١﴾ ﴾(الإسراء: 81)

والأصنام تسقط على وجوهها، فلم يبق منها واحدٌ قائما.

ودعا رسول الله ﷺ عثمان بن طلحة ﷺ، وكان معه مفتاح الكعبة، فطلبه منه، فلما أعطاه إياه فتحها، ودخل رسول الله ﷺ الكعبة وطهَّرها، وأزال منها الأصنام، والصور، ومظاهر الشرك التي كانت فيها، ثم صلى داخلها، وكبَّر في نواحيها...

ووقف رسول الله ﷺ على باب الكعبة مواجها لقريش، وقد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا يفعل بهم رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ:

[2] - زهق الباطل: زال وقل واضمحل.
[3] - زهوقًا: زائلاً.

- لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده...

ثم قال رسول الله ﷺ:

- يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟

قالوا:

- خيرا، أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم.

فقال رسول الله ﷺ:

- يغفر الله لكم، اذهبوا فأنتم الطلقاء!

وجلس رسول الله ﷺ في المسجد الحرام، ثم دعا عثمان بن طلحة ﷺ، فلما جاءه عثمان ﷺ أعطاه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة، ليكون معه ومع أبنائه من بعده إلى يوم القيامة، وقال رسول الله ﷺ:

- هذا مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برٍ ووفاء.

وحان وقت الصلاة، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً ليصعد الكعبة فيؤذن من فوقها.

وتسلق بلال ﷺ جدار الكعبة حتى صعد فوقها، والمسلمون يتابعونه في فرح وسعادة، ووقف فوق أعلى موضع فيها، ليصدح بالأذان بصوته الندي:

- الله أكبر..

الله أكبر..

الله أكبر..

الله أكبر..

أشهد أن لا إله إلا الله.

أشهد أن لا إله إلا الله.

أشهد أن محمداَ رسول الله.

أشهد أن محمداَ رسول الله.

حي على الصلاة

حي على الصلاة...

ودخل رسول الله ﷺ دار أمِ هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها فتوضأ، وصلى ثماني ركعات صلاة الفتح، شكرا لله، وحمدا له وتواضعا لعظمته، أن مكّنه من دخول مكة فاتحا منتصرا.

وفي اليوم التالي للفتح قام رسول الله ﷺ في الناس خطيبا، فحمد الله تعالى، وأثنى[4] عليه، ثم قال رسول الله ﷺ:

– أيها الناس، إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي بلد الله الحرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما، أو يقطع شجرة، ولا ينفر صيد...

وأسلم أهل مكة جميعا، واجتمعوا يبايعون رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ على الصفا، والناس في المسجد الحرام، فبايعوه على السمع والطاعة، بايعه أهل مكة من الرجال.

---

[4] - أثنى عليه: مدحه.

ثم جاءت النساء للبيعة فيهم هند بنت عتبة متخفية حتى لا يعرفها رسول الله ﷺ ويعاقبها بما فعلت بعمه حمزة ﷺ يوم أُحَد، حين أغرت وحشي بقتله، وشقت بطنه، وأكلت كبده، فبايعت رسول الله ﷺ على الإسلام والسمع والطاعة...

وعرفها رسول الله ﷺ، فابتسم لها وعفا عنها، ودعا لها بخير، ثم رجعت إلى بيتها فكسرت الأصنام، وحسن إسلامها هي وزوجها أبو سفيان رضي الله عنهما.

وفرَّ بعض فرسان المشركين من مكة لأنَّهم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ والمسلمين، فطلب أصحاب النبيِّ ﷺ منه الأمان والعهد لبعضهم، فأمَّنهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم بعد أن أسلموا وتابوا وحسن إسلامهم.

وطلب عثمان بن عفان ﷺ من رسول الله ﷺ العفو لعبد الله بن أبي سرح بعد أن تاب وعاد إلى الإسلام، وطلبت أم حكيم رضي الله عنها الأمان لزوجها عكرمة بن أبي جهل من رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، وغيرهما...

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة، وهي بلده، ووطنه، ومكان مولده، خاف الأنصار، وهم أهل المدينة المنورة أن يقيم رسول الله ﷺ بمكة ولا يعود معهم إلى المدينة، فقال رسول الله ﷺ في المدينة وأهلها خيرا، وأنه سيكون فيها حياته، ويكون فيها مماته، قال ﷺ للأنصار:

- المحيا محياكم، والممات مماتكم.

وأقام رسول الله ﷺ في مكة تسعة عشر يوما، أخذ البيعة على أهلها، وأرشدهم إلى دينهم، وطهَّر بيت الله الحرام، ومكة كلها من الأصنام.

وأمر رسول الله ﷺ أهل مكة أن يكسروا الأصنام في بيوتهم، فلم يتبق صنم واحدٌ في بيت واحدٍ منهم.

وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما، وغيرهما، لهدم الأصنام المنصوبة قرب مكة، فهدموا أصنام جزيرة العرب الشهيرة مثل: اللات، والعزَّى، ومناة، وسواع، ويغوث، وغيرها...

وهكذا كانت غزوة فتح مكة أعظم فتح في تاريخ الإسلام، قضى الله به على الشرك والوثنية في مكة، فلم يعد فيها صنم واحد، وأصبحت بلد الله الحرام حرما آمنًا إلى يوم القيامة.

وبعد أن كان المسلمون يتخفُّون فيها ويكتمون إسلامهم، ويعبدون الله سرا، جهروا بإسلامهم، وعبدوا الله آمنين بغير خوف.

وكان لفتح مكة تأثير كبير في دخول كثير من أهل الجزيرة العربية الإسلام، عندما علموا تعظيم رسول الله ﷺ لبيت الله الحرام، وكيف دخلها منتصرا، وأنَّ الله معه ينصره ويؤيده، وكيف عفا عن أهلها جميعا بعد ما آذوه، وأخرجوه، وحاربوه سنين طويلة.

ودخل الناس بعد هذا الفتح في دين الله أفواجا، وأقبلت قبائل العرب من خارج المدينة على رسول الله ﷺ فبايعوا على الإسلام.

وبعد أن كانت أعداد المسلمين في بداية دعوة رسول الله ﷺ قليلة، أكثرهم من الضعفاء والعبيد الذين كانوا يعذَّبون على أيدي طغاة قريش، زادت أعدادهم في المدينة آلافًا، أصبحوا في زيادة مستمرة في حياة رسول الله ﷺ.

وبعد موت رسول الله ﷺ واصل الإسلام انتشاره، واستمر دخول الناس في الإسلام بالآلاف إلى يومنا هذا، وأصبحوا اليوم بالملايين، ومئات وآلاف الملايين...

وصدق الله تعالى في قوله في كتابه الكريم:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ (سورة الفتح)